والإسلاماه

صالح الهطالي

كنتُ مرة أتابع في شبكة أهل الحق والاستقامة حوارًا دار بين ثلاثة أشخاص، تسمَّوا بالأسماء التالية: سليمان الخراشي وأبو عاصم الرشيدي وصادق أمين، وقد كان الحوار يدور حول أمورٍ مذهبية يسع فيها الخلاف، وفي الوقت نفسه ، كان الصرب- أخزاهم الله- يشنُّون، بدعم من أمريكا وأوروبا، حرب إبادة على مسلمي كوسوفو. اغتضتُ كثيرًا من واقع المسلمين، المتجسِّد في الحوار الذي يدور بين هؤلاء الثلاثة، فكتبتُ الردَّ التالي، تعبيرًا عمَّا يجري بداخلي من غليان وضيق.

الكاتب: مسلم غيور

الموقع: ساحة الحوار بشبكة أهل الحق والاستقامة (www.ibadhiyah.net)

التاريخ: ١٤ أبريل ١٩٩٩م

إلى الإخوة القائمين على هذا الموقع المبارك، وإلى فضيلة الشيخ الخراشي وإلى الإخوة أبي عاصم الرشيدي وصادق أمين، وإلى كل المترددين على هذا الموقع. أحييكم بتحية الإسلام الخالدة، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ،،،

منذ فترة طويلة وأنا أراقب ما يجري في هذه الساحة، وأستفيد من سؤال هذا ورد ذلك وتعليق ثالث ورابع. ولكن- للأسف- فقد لاحظتُ في الآونة الأخيرة أن المواضيع المطروحة قد أخذت تنهج نهجًا أثار حفيظتي، فبادرتُ إلى الكتابة رغم أني لستُ من أهلها. ولكي

أُسَهِّل على القارئ الكريم تَتَبُّعَ أفكاري، فسأوردها على شكل نقاط. وهنا أود أن أعتذر إلى كل من عناه كلامي هذا بالإشارة أو التلميح، فإن قصدي مرضاة الله سبحانه وتعالى.

- إنني عندما أتكلم عن الأمة الإسلامية فإني أعني بها تلك الحشود من البشر في أيّ بقعةٍ من بقاع الأرض ممن يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فالأمة بهذا المفهوم تشمل الأبيض والأسود، العربي والأعجمي، الشيخ والصبي، المرأة والطفل، ممن يشهدون بكلمة التوحيد، فهذه هي الأمة الإسلامية: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: ٥٢).

- إنني لا أريد أن أضفي إلى هذا الوصف للأمة الإسلامية ما شاع بين الناس في يومنا هذا من أوصافٍ وألقابٍ هي- في نظري- عوارض على جوهر الإسلام؛ فالأمة ليست شعوبًا ولا طوائف ولا مذاهب ولا أحزابًا، وإنما تُنسب إلى الإسلام فحسب.

- لقد مرت الأمة الإسلامية منذ نشأتها إلى يومنا هذا بأزمات، واجتاحتها عواصف اختلفت في كل مرة في ضراوتها واتساعها وأسبابها ونتائجها، ورغم أن هذه العواصف كانت تُبَطِّئ مسيرة الخير قليلًا، إلا أن ركب الإيمان استطاع أن يَصْمُد أمام تلك الزعازع، وأن يصل بالأمة إلى بَرِّ الأمان بعون الله وتوفيقه.

- إن الأزمات والمصائب التي بدأت تعصف بالأمة في العصور الأخيرة لهي أشدُّها على الإطلاق؛ فالأمة الإسلامية قد خرجت من كل أزمة من الأزمات السابقة أضعف حالًا مما كانت عليه من قبل، وأصبحت منهكةً ضعيفة تؤلمها الجراح وتَخُزُّ فيها القيود والأغلال. وما كادت الأمة تفتح أعينها وتتنفس الصعداء حتى بدت في الأفق سحابة من غبارٍ سدَّت ضوء الشمس، وبدأت الزوابع تتقاذفها يُمنة ويُسرة؛ فمن حروب صليبية، إلى حروب عالمية، إلى كوارث طبيعية، إلى مآسي لا تكاد تنتهي إحداها إلا وقد بدأت التي تليها. بالأمس فلسطين ثم بعدها كشمير ثم الفلبين ثم أفغانستان ثم البوسنة وأخيرًا كوسوفو.

- في هذه الأجواء الحالكة، ووسط الصراخ والعويل، ينبعثُ من أبناء هذه الأمة ممن حباهُم الله بالعقول النيرة، والأساليب المبدعة، فيضعوا على رؤوسهم العمائم، ويُرَجِّلون شعر لحاهم، ويتطيبون بالعود والمسك، ثم يستاكون بعود الأراك، وبعدها يخرجون إلى المجالس فيتصدرونها،

ويبدؤون ينفثون في أبناء هذه الأمة السُّـمَّ الزُّعاف، فيُضَـلِّلُون ويُكفِّرون ويُشـرِّكون. فالأمة –في نظرهم– محصورة في فئة محدودة، وما عداها زيغٌ وضلال.

ولستُ أخص بهذا الحديث فرقة أو مذهبًا بعينه، ولكنها– وللأسف الشديد– ظاهرة كادت أن تكتسح كل بقاع الإسلام. فكثير من العلماء– وللأسف الشديد– هم حملة هذا الفكر، وهم– في نظري– أخطر على الإســـلام من أعدائه التقليديين. فكلنا يعرف أن أعداءنا التقليديين يحاربوننا بأسلحة اتفق العالم بأسره على مساوئها وأضرارها، ولكن هؤلاء العلماء والشيوخ يحاربوننا بأسلحة وضع عليها الهلال، وكتب عليها "لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله".

ربما تقولون بأنني "متطرف" في قولي هذا، ولكن أقول لكم: بربكم خبروني: أتدميرُ شـــعبٍ بقنبلة نووية أعظم جُرمًا من رمي فرقة بالمروق أو الضـــلال أو الخروج عن الدين؟ إن تدمير شـــعبٍ بصـــاروخ أو قنبلةٍ قد يحرك الضـــمائر الحية، ويبعثَ روح الجهاد والتمســـك بالدين فيمَن بقي في الأمة، وأما رميُ فرقة بالضـلال أو إخراجها من الملة فيعني خسـران تلك الفرقة لوَصْـمِها بالخروج من الملة، وخسران باقي الأمة لتصديقهم ذلك.

ثم أخبروني: أيُّ جُرمٍ أعظم من تضـليل وتشـريك علماء الأمة ورموزها، ومن هو المسـتفيد من ذلك؟ أيُعقَلُ أن يوصـفَ الإمام الخميني بالضـلال وقد عاش حياته لإرجاع الأمة إلى نصـابها، ووَرَّثَ حضارة إسلامية ما زال الشرق والغرب يحسب لها ألف حساب؟ أيُعقَلُ أن يكون الشيخ أحمد الخليلي كاذبًا مبتدعًا، وقد نذر نفسـه لنصـرة دين الله، ورأب صـدع الأمة ما أوتي إلى ذلك سـبيلا؟ أيُعقَلُ أن يكون شـيخ الإسـلام محمد بن عبد الوهاب عميلًا لليهود، وقد عاش حياته يقاوم كل بدعة ويدعو إلى كل فضـيلة؟ أيُعقَلُ أن يكون شـهيد الإسـلام سـيد قطب "**ما ترك بدعة إلا واحتواها، ولا أصـلًا للإسـلام إلا وهدمه**"، وأن فيه "**لوثةً شـيوعية**"، وقد نقض فكر الجاهلية التي تعيشـها الأمة، وبيَّن لها المنهج الإسـلامي والفكر السـويّ، ودفع حياته ثمنًا لذلك؟ أيُعقَلُ أن يكون هؤلاء وغيرهم ممن وُصِـموا بالضـلال والزيغ هم حقًّا أهل ضـلال وزيغ، ولم تذق نفوسهم إلا حلاوة الإيمان، ولم تَتُقْ أنفسهم إلا لنصرة دين الله؟

- على ضوء ما ذكرته في النقطة السابقة فإني أقول بأن الذين يقضون حياتهم ولا هَمَّ لهم إلا تفريق أمر المسلمين بتشريك هذا وتضليل ذلك، ورمي هذا بالزندقة وذلك بالكذب، ما هُمْ– والعياذ

بالله- إلا أعوانًا للشيطان وحملةً للوائه. وأقولها بصراحة أنه ما رُزِئ الإسلام في مصيبة أعظم مما رزئ بانتساب هؤلاء إليه. ما هؤلاء إلا شياطين الإنس تنفُثُ في صدور أبناء هذه الأمة ليقضوا على ما بقي في صدورهم من إسلام. إن انشغالهم بهذه الأمور ليلَ نهارَ لهو مكرُ الليل والنهار الذي ذكره لنا الله- سبحانه وتعالى- في كتابه العزيز في قوله: ﴿ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا** ﴾ (سبأ: ٣٣).

- وإذا قلتم بأن ما ذكرتُه جرمٌ عظيم واتهام شنيعٌ، فأقول لكم: أثبتوا لنا حسن نواياكم. أوقفوا هذه المهاترات والأباطيل، وسَخِّروا عقولكم وطاقاتكم لجمع شتات المسلمين، ورأب صدعهم. بَصِّروا شباب الأمة بما يحيكه أعداؤهم ضدهم من مؤامرات ودسائس. غيِّروا نهج خطبكم ومحاضراتكم وكتاباتكم لفضح خطط الأعداء واستراتيجياتهم في القضاء على الإسلام والمسلمين، أم إنكم لا تجرؤون على الحديث في مثل هذه الأمور؟ أليس هذا من الوهن الذي أصاب الأمة والذي عليكم الانكباب على دراسته وتحليله؟

لماذا لا تقضوا أيامكم ولياليكم في دراسة ما ينشره الأعداء من كتب ودوريات، وما يعقدونه من ندوات ومؤتمرات؟ أم تقولون إن هذا أيضًا حرام لأنه من إنتاج الكفار؟ يا علماء ويا مشايخ ويا دعاة: إن الأمة الإسلامية لو اجتمعت بأسرها على دراسة وتحليل ما ينتجه أعداؤها ضدها لما استطاعت استقصاء ذلك، فكيف وأنتم منهمكون في تحديد الطول الشرعي للِّحية، وهل الأَوْلى الصلاة بالسروال أم الإزار، وهل نرفع الأصبع في التشهد مرة واحدة، أم نحركها مرارًا، أم لا نرفعها مطلقًا؟ إنها لمأساة وعمر الحق.

- وإن سلِم كلامي هذا من وصمه من قِبَلكم بالزيغ والضلال، وبدأ يحرك مشاعركم، ولكنكم تلكأتم حيث لا تدرون من أين تبدؤون، فأقول لكم بأن العالم بأسره يعيش الآن- ما عدا الأمة الإسلامية طبعًا- في موجة من التوتر بسبب ما يجري في كوسوفو. وما أجمل أن تحظى هذه القضية بشيءٍ من وقتكم، وسطورٍ من مؤلفاتكم، أو ذكرٍ في ثنايا خطبكم ومحاضراتكم.

إن ما تحتاجه قضية كوسوفو الآن هو ليس المال أو الطعام أو اللباس، فهذه يوفرها أعداء الله عن طريق منظمات إغاثتهم، ولكن ما تحتاجه القضية هو تَتَبُّعٌ للأوضاع، ودراسة وتحليل لما يُنشر في وسائل الإعلام من تحليلات ومشاركات.

فما أجمل أن يعكف الشيخ الخراشي على دراسة وتحليل الأوضاع السياسية والاقتصادية لأهل كوسوفو، وما أجمل أن يقوم أبو عاصم الرشيدي بتتبُّع ما يُنشَر في وسائل الإعلام الشرقية والغربية فيما يتعلق بهذه القضية، وما أجمل أن يتَتَبَّع صادق أمين المؤتمرات والندوات التي تعقد حول هذه القضية، وما أجمل- بعد كل هذا- أن نرى هذه الساحة المباركة تبثُّ نتائج هذه الدراسات والتحريات مكتوبة بأسلوب مُبَسَّط يسهل فهمه على كل متصفح، وفي ثنايا هذه المواضيع يقوم أصحابها على توجيه ركب الأمة الإسلامية إلى الوجهة السليمة التي أرادها لها الله سبحانه وتعالى.

مشائخي وإخواني:

اعذروني إن كانت لهجتي غير ما تعوَّدتُم سماعه من أتباعكم ومُريديكم؛ فإن مَن يرى ويشاهد ما يحدث للمسلمين في كل بقعة من بقاع المعمورة من تنكيل وتشريد وتقتيل، ومَن يرى ما تنشغلون أنتم به من مهاترات وحوارات لا أظنها- والعلم عند الله- مفتاحًا لدخول الجنة؛ أقول بأن مَن يشاهد هذا وذاك لا يملك إلا أن يصرخ بأعلى صوته ويقول لكم ما قلته سابقًا. وإذا كنتم لا زلتم في شكٍّ مما أقول، فأرجو من كل واحدٍ منكم أن يتصور معي هذا المشهد:

تأتي إلى منزلك وتفتح الباب فتجد جنودًا يملؤون المنزل، وتجد امرأتك وبناتك وأطفالك قد كُبِّلوا بالسلاسل. وإذا بالجنود يندفعون إليك ويضعون فُوَّهات بنادقهم على صدرك، ثم يبدؤون ببناتك وزوجتك فيغتصبونهن الواحدة تلو الأخرى أمام عينيك وبين ناظريك، وهُنَّ يصرخن فيك يطلبن منك النجدة، وأنت لا تملك إلا الصراخ. وبعد أن قضى الجنود مأربَهم منهن أطلقوا عليهن النار

أمام مشهد منك ومسمع. بعدها عمدوا إلى بُنياتك الصغار وطفلك الرضيع ووضعوهم أمامك، ثم شَدَّوا رقابهم وسَلُّوا سكاكينهم، وذبحوهم ذبح الخراف. بعد كل هذا تركوك لتدفنهم بيديك.

والآن أخبروني ماذا لو حدث مثل هذا لأيّ واحدٍ منكم، ماذا ستكون حياته بعد ذلك؟ أينشغل في تأليف الكتب وكتابة المقالات وإلقاء الخطب والمحاضرات لتكفير وتضليل مَن بقي من أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- ممَّن يشهدون بوحدانية الله، أم يعمد بكل ما آتاه الله من حولٍ وطَولٍ للثأر لنسائه وأطفاله، وتطهير الأرض من تلك الشراذم التي تعيث في الأرض فسادًا؟

أقول: إن كان هذا المشهد لم يحرك في نفسك شيئًا، فإما أن تكون من الذين طبع الله على قلوبهم، وإما أني أكتب في المكان الخطأ. إن هذا مشهدٌ مبَسَّطٌ لآلاف المشاهد التي تتكرر للمسلمين

في كل يوم، وإن كنتَ تحس بمَن هم من أصلابك، فإني أقول لك بأن الرابطة التي تربطك بهذه الألوف المؤلفة التي تُنتَهك أعراضها وتُستَباح دماؤها في كل يوم مرارًا وتكرارًا لهي أقوى من رابطة الدم التي تعتزَّ بها وتحافظ عليها.

مشايخي وإخواني، هذه بعض الخواطر التي كنتم السبب في إثارتها، وإني لآمل أن تثيروها مرارًا أخرى، ولكن في طاعة الله، وفي النهج الذي خطه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أستسمحكم عذرًا، وأسأل الله المغفرة لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد.